الفصل الخامس عشر

العلاقات الاجتماعيـــة بيـــن العرب المسلمين ومملكـة المقرة النوبيـــة ومملكة البجـــة

منـذ أن فتـح عمـرو بـن العـاص مصـر ، كـان لزامـا علـى الدولـة الإسلامية أن تقوم بإرسال أعداد من الرجال بـين حـين وآخـر لإكمـال فتـح البلاد ، والدفاع عن كل محاولات الهجـوم المضـاد الـذي يمكـن أن تقـوم بـه الإمبراطورية البيزنطية خاصة على الإسكندرية . ولم تكـن الدولـة الإسـلامية بمأمن في حدودها الجنوبية الـتي كـانت تجـاور فيهـا مملكـة النوبـة المسـيحية . وكان المسلمون على علم بالاتصالات المستمرة بين القوتين المسيحيتين النوبة والروم . لذلك فقد كانت أعين المسلمين مفتوحة لمثل هذا التقـارب في كلتـا الجهتين .

لم يكن عدد الجنود المسلمين كبيرا في مصـر ، وكـان سـيدنا عمـر بـن الخطاب يوالى إرسال الجنود لعمرو بن العاص حتى يقوى من مركز المسلمين هناك . كذلك نجد أنه عندما استعرت نيران القبلية بين عرب قضاعة اليمنيـة والعدنانيين في الشام وخشي عمر بن الخطاب (ض) من اندلاع الفتنة القبليـة هناك أمر بإيفاد ثلث قضاعة إلى مصر لمؤازرة الأجناد المسلمين . وكـان هـذا

الثلث الذي أمر بالنزوح إلى مصر قد شمل قبيلة جهينة وجزءا من بلي . فرحل هذا الثلث إلى مصر لينضوي تحت لواء عمرو ابن العاص .

كذلك نرى أن عمر بن الخطاب (ض) قد أمر عمرو بن العاص بأن يغزو النوبة التي كانت قد حشدت جنودها ورجالها للإغارة على صعيد مصر لمساعدة البيزنطيين الروم من جهة ، ولإضعاف الضغط على أية مقاومة مسيحية في مصر . وعملا بتلك الأوامر فقد أرسل عمرو بن العاص عقبة بن نافع الفهرى (وفي بعض المصادر أباه نافعا الفهرى أخا عمرو لأمه ، وربما كان الجيش تحت قيادة الأب والابن معا من بعده) وسار هذا الجيش إلى بلاد النوبة حيث التقى بهم في عدة مواقع . وكانت هذه الحملات مكونة من خيالة المسلمين الذين كانوا يخرجون لمحاربة النوبة مرة بعد مرة أسوة بغزوات الصوائف التي كان يقوم بها المسلمون بانتظام ضد الروم .

وعندما عزل سيدنا عثمان بن عفان (ض) عمرو بن العاص رضي الله عنه من مصر عين بدلا منه أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وأمره بغزو النوبة حتى يقلص من قواهم في جنوبي مصر . وطوعا لأوامر الخليفة قام ابن أبي السرح بالهجوم على النوبة بجيش قوامه عشرون ألف مسلم عربي ، والتحم معهم في عدة معارك . وأثخنوا المسلمين جراحا ، ولم يستطع أي من الفريقين الانتصار على الآخر رغم أن المسلمين أوغلوا في بلاد النوبة حتى وصلوا إلى عاصمة بلادهم دنقلة ، واستعملوا المنجنيق في ضرب أسوارها ومبانيها لتحطيم معنويات النوبة وكسر شوكتهم .

لما رأى كلا الجانبين صعوبة الانتصار انتصارا حاسما في تلك المواقع ، رأى ملك النوبة أن يعقد صلحا مع المسلمين ، واستجاب عبد الله بن سعد لرغبته تلك ، وتقابل الزعيمان حيث أظهر القائد المسلم إكراما وتقديرا

للملك النوبي مما ساعد في التوصل إلى حل سلمي أنهى بمعاهدة البقط في سنة ٣١هـ / ٦٥١م .

وكانت معركة رماة الحدق ذات أثر فعال على المسلمين. وقد أعجب العرب بذلك السلاح النوبي حتى قال المسعودي في وصف النوبة بأن " رميهم بالنبل عن قسي غَرَ بية (والغَرَب نوع من الشجر يستخدم للرماح [١٧] لاستقامته) وعنهم أخذ الرمي أهل الحجاز واليمن وغيرهم من العرب " مما يدل على قوة تأثير هذه السهام الغربية حتى أصبحت عدة حربية استوردها أهل الحجاز واليمن من النوبة ثم جعلوها تنتشر بين سائر العرب في حروبهم الأخرى . وفيما يلي نورد نص هذه المعاهدة التي توصل إليها الفريقان :

نص المعاهدة بين عبد الله بن سعد بن أبي السرح وعظيم النوبة :

عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السرح لعظيم النوبة ، ولجميع أهل مملكته ، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة ، من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة : أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أرض صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة : إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله ، وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم ألا نحاربكم ، ولا ننصب لكم حربا ، ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم ،

---

[١٧] يقول أبو تمام :-

تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست بنبع اذا عدت ولاَ غرَبِ

ووجدت أن كثيرا من المصادر تكتب هذه الكلمة عربية أو غريب ولكنني أظنها غَرَبية نسبة لهذا النوع من الشجر .

على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه . وعليكم حفظ من نزل في بلادكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم . وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ، ولا تستميلوا عليه ، ولا تمنعوا منه . وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصليا ، ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه إلى أن ينصرف عنه . وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته . وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأسا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب يكون فيه ذكران وإناث ، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم – تدفعون ذلك إلى والى أسوان . وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ، ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان . فان أنتم أويتم عبدا لمسلم ، أو قتلتم مسلما أو معاهدا ، أو عرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ، أو منعتم شيئا من الثلاثمائة رأس والستين رأسا ، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان ، وعدنا نحن وأنتم على سواء ، حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح ، وذمة الحواريين ، وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم . الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك . "

وبعث إليهم عبد الله بن سعد ما وعدهم به من الحبوب قمحا وشعيرا وعدسا وثيابا وخيلا . ثم تطاول الرسم على ذلك فصار رسما يأخذونه عند دفع البقط في كل سنة . [١٨]

---

[١٨] خطط المقريزي

وكان من أهم جوانب هـذه الاتفاقيـة مـا نـص فيـه علـى أن يسـمح للمسلمين باجتياز أراضي النوبة دون الإقامة فيها لان ذلك أدى إلى كثير من الاختلاط السلمي ، والتعرف بالجنس الآخر . ولما كانت بلاد النوبة من بلاد أهل الكتاب فانه من المتوقع أن يكون عدد كبير من تجار العرب المسلمين قد تزوج من نساء النوبة وأقام لنفسه مقاما فى مدنهم وأحيـائهم وقراهـم سـعيا وراء التجارة وجلب السلع الرائحة فى كلا الجانبين .

وكان لهذه المعاهدة أيضا شأن كبـير فـى نشـر الديـن الإسـلامي فـى دنقلة العاصمة [١٩] التى كان يؤمها تجار المسلمين وجوالتهم وهم فى أسفارهم التجارية ، أو للتعرف على أحوال البلاد ، أو عند مرافقتهم لقوافل البضائع من مكان لآخر . وقد أدت هـذه الرحلات والأسـفار إلى اعتنـاق عـدد مـن النوبة الإسلام مثلهم فى ذلك مثل أولئك الفلاحين مـن أبنـاء النوبيين الذيـن باعوا ضياعهم وسواقيهم إلى العرب جنوبى أسوان .

وكما هو معروف عن المسلمين منـذ بـدء الدعـوة إلى الإسـلام فـان التعليم كان من أهم مظاهر الدعوة ، ولذلك فقد كـانت المسـاجد مـدارس لصغار التلاميـذ لكي يتعلموا فيها الكتابة والقراءة . ومما هو مؤكد أن مسجد عبـد الله بن سعد بن أبى سرح فى دنقلة كانت له هذه الميزة ، وأصبح قبلـة لمن يريد أن يحفظ القرآن ، ويصلـي ، ويدعـو للإسـلام .وكـانت نـار قـراءة القرآن فى دنقلة مسرجة منذ سنة واحد وثلاثين هجرية عملا بما نصت عليـه اتفاقيـة البقـط بحيـث يقـوم ملـك النوبـة بعمـل الترتيبـات اللازمـة لإسـراج المسجد .ولم يكن مثل هذا الإسراج غريبا على النوبة الذين كانوا يستعملون

---

[١٩] المقصود بدنقلة هذه هى دنقلة العجوز بالقرب من جبل البركل عند مدينـة كريمة وليسـت دنقلـة الحالية : راجع الخريطة .

المسارج والشموع فى إضاءة كنائسهم التى كانت تزيد عن خمسمائة كنيسة فى سائر أنحاء السودان داخل مملكة علوة . إذن فقد نجح عبد الله بن سعد فى نشر الدعوة الإسلامية عن طريق التعليم ، ولم نسمع أن أيا من ملوك دنقلة كان يقوم بمنع أبناء بلده من اتباع الدين الإسلامي أو تعذيبهم لخروجهم من الدين المسيحى، بل نرى ونحس مما كتبت المصادر العربية أن التسامح الديني بين العقيدتين كان سائدا فى أجزاء السودان قاطبة سواء أكان فى أراضى النوبة المسيحية أو البجة الوثنية التى أسرعت باعتناق الإسلام .

وكانت العلاقات التجارية فى أوائل العهود بين المسلمين والنوبة على أحسن ما يكون .وكانت أسوان مركزا تجاريا واجتماعيا وعلميا دينيا هاما للغاية إذ أن كل تجار إفريقيا وآسيا كانت تلتقي فيها .ومن هناك ترسل السلع التجارية القادمة من هذه المناطق إلى الشمال للوصول إلى الإسكندرية ومنها إلى أنحاء أوربا المظلمة. وكانت هناك تجارات سابقة قبل ظهور الإسلام منتشرة بين الإمبراطورية البيزنطية عبر البحر الأحمر فتحمل السلع والتوابل الهندية . وتنقل أيضا أخشاب الأبنوس وغيرها من كل مكان فى إفريقيا عبر بلاد النوبة أو البجة لتصل إلى الفسطاط والإسكندرية وغيرها. والواقع فإن هذه التجارة الدولية قد وطدت العلاقات الودية بين الجانب السوداني من بجة ونوبة وبين الجانب العربى المسلم .

وقد مربنا كيف أن تجار العرب كانوا على اتصال دائم بالنوبة والبجة . ورأينا كيف أن زكريا بن صالح المخزومى وعبد الله بن إسماعيل القرشي المترجمين كانا يسكنان فى أراضى البجة وتعلما اللغة التبداوية وحذقاها حتى أصبحا يترجمانها ويترجمان إليها . ومن المتوقع ألا يكون هذان

القرشيان هما وحدهما اللذان كانا يسكنان مع البجة سنة ٢١٦ هـ ٨٣١ م بل من المتوقع أن تكون هناك جماعات مخزومية وقرشية وغيرها تسكن فى بوادى البجة وفى قراهم بل وفى عاصمتهم هجر البجاوية . وقد هاجر بنو مخزوم على الأرجح فى وقت متأخر بعض الشيء بعد الفتح وكان معهم جماعات من قريش من بنى تميم بن مرة (جد أبى بكر الصديق رضى الله عنه) وبنى أسد ومنهم الزبير وأبناؤه والجعافرة[٢٠]. ولم تكن هجرة قريش إلى مناطق البجة بالأمر المستغرب لان قريشا كانت قبل إسلامها تشتهر بالتجارة الدولية. وكما نعرف فإن قوافلها كانت تصل ما بين الشام واليمن بل وتتوغل فى أراضى الحبشة ، فلما جاء الإسلام أخذت تتوسع فى مناطقها التى تتاجر فيها وذلك عن طريق مملكة البجة عبورا منها إلى مملكة علوة النوبية . وأصبحت من هناك تحصل على ما تريد من حاصلات المناطق الإفريقية بما فيها العاج والصمغ وقرن الكركدن ، بل وبعض الحيوانات أيضا إلى غير ذلك من السلع التى كانوا يتاجرون فيها مع بقية أنحاء العالم .

يبدو أن تأثير العرب فى بلاد البجة قد كان كبيرا ، وتجدر الإشارة إلى تلك القرية التى كان يسكن فيها العرب المسلمون فى خور نبت بالقرب من مدينة سنكات ، فقد عثر على بعض شواهد القبور فى هذه المنطقة وظهر من هذه الشواهد أنها ليست كلها لعرب بل إن بعضها يعتقد أنه ، لاكسوميين مثل قبر أكسوم يعلوم وبعضها لغيرهم مما يدل على أن التأثير العربى الإسلامي كان كبيرا فى تلك الجهات ، فهؤلاء ليسوا عربا، ولكنهم

---

[٢٠] انظر يوسف فضل ص ٧٨ يرى أن أكسوم يعلوم ليس بعربي وإنماء هو حبشي . لكن اسم أكسوم أو اويكسوم كان من الأسم الحميرية وهذا يرجع الى العلاقات التاريخية بين الحبشة واليمن والنفوذ المتبادل بينهما . والمسألة تحتاج الى مزيد من الدراسة .

كانوا مسلمين ، وتعلموا اللغة العربية ، وكانوا يكتبونها ويقرؤونها وهم في وسط إقليم البجة وانصبغ كليا بالصبغة الإسلامية العربية مما يجعلنا نعتقد بان النفوذ العربى الإسلامي لم يكن أمرا محدودا ، بل كان على نطاق واسع في تلك الفترة التى امتدت بين سنة ١٤٧ - ٣٧٧ هـ /سنة ٧٦٤ - ٩٦٧ للميلاد .[٢١] وما زالت هذه المنطقة تدعو للاستقصاء حيث لم يستطع أحد التكهن بما كان يفعله هؤلاء المسلمون من العرب فيها. وقد كانت هذه القرية تتكون من حوالى مائة منزل بعضها بالطوب الأحمر .كما كان هناك سور حجرى بها ووجدت في أنقاضها بعض قطع الزجاج ، وحوالي مائة شاهد للقبور وبعض حطام أو ان فخارية كتلك التى وجدت فى أنقاض عيذاب .

بيد أن الأمر المهم فى هذه القرية التى استقر فيها العرب المسلمون هو أنها كانت قد بدأت منذ القرن الثانى للهجرة ، وأن بعض سكانها كان يعرف الكتابة العربية .ولاشك فى انه كان بها مدرسة لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة ،كما أنها كانت تسكنها جماعات أخرى غير عربية ولعل الأسماء مثل أكسوم ، وابن يعلوم وسارى بن عبد ا لله ريحان بن موحا وعائشة بنت عيسى الريفى ما يدل على أنها منطقة متعددة الجنسيات .

هذا الموقع لا يزال بكرا فإن المنقبين عن الآثار لم يكتشفوا بعد أبعاده الأثرية. وعسى أن تجيء بعثات تهتم بالآثار العربية الإسلامية لتكتشف ما أغلق علينا حتى الآن . ويبدو أن منطقة خور نبت كانت منطقة تتوفر فيها المياه مما ساعد على اختيارها كمنطقة استقرار للعرب . أما من ناحية الاتصالات فإنها تقع فى مفترق الطرق التى تسير عليها القوافل سواء غربا

إلى بربر على نهر النيل أو جنوبا إلى المنطقة التى كانت معروفة آنـذاك باسـم بلاد التاكه ، هذا الاسم الذى ما زال مستعملا ومعروفا .وفى بلاد التاكة (التاكا) كانت هناك أيضا قبيلة بلي المتزعمة على عمـوم قبـائل ممـالك البجـة الخمس إذ انهم كانوا منتشرين فى كافة أنحاء مملكة البجة سواء علـى البحـر الأحمر ، أم فى جباله ، أم فى سهوله مثل خور بركة وخـور القـاش. وكـانت مملكة علوة تعتمد فى الحفاظ على أمن التجارة وسلامتها على نفوذ الحدارب زعماء بلى والبجة على رعاياهم من سائر أفراد البجة . وكانت كل القوافـل التجارية تسـير مـن أراضـى مملكـة علـوة الداخليـة إلى مصـوع (بـاضع) أو جزيـرة عـيري (أو الريـح) ، أو سـواكن ، أو عيـذاب تحـت رعـايتهم وحمايتهم. وكما قال اليعقوبى فـإن تجـار العـرب كـانوا يختلفـون إلى مملكـة علوة ، ويتاجرون معها فى مختلف السلع ، ولا يتأتى لهم مثل هذا الاتصـال ما لم يكونوا على علاقة ودية للغاية مع البجة وزعمائهم مـن البلويـين ، لأن كل السلع يجب أن تعـبر أراضيهـم لتصـل إلى موانـىء البحـر الأحمـر . ومـن الواضح أن موقع المدينة الصغيرة فى خور نبت كان محط الرحـال لكثـير مـن العرب أفرادا وجماعات فى مملكة البجة.

ولعل من أهم ما ذكره الجغرافيون العرب عـن استقرار الجماعـات والأفراد العرب فى السودان ما أورده ابن حوقل عن قيام " مملكة إسـلامية (داخل مملكة علوة) ، فهو يقول بان النهر المعـروف باسـم " الدجـن " يـأتي من بلاد الحبشة فينقطع فى أعمال دجن أي فى أراضـى ذلـك النهـر الـذى يقصد به خور القاش .ويصف المنطقة بأنهـا عـبارة عـن " قـرى متصلـة ذات مياه ومشاجر وزرع وضرع. وإلى وسط هذا الـوادى (تفلين) قـرى أيضـا للبادية منهم ، وينتجعون منها حين المطر. ولهم ملـك مسـلم يتكلـم بالعربيـة

من قبل صاحب علوة ويختص أهل تفلين بالإبل والبقر ولا زرع لهم. وفيهم مسلمون كثيرون من غير ناحية على دينهم يتجرون ويسافرون إلى مكة وغيرها) انتهى قول ابن حوقل .

وكما هو واضح فإن نهر الدجن أو الدكن إنما هو خور القاش الذى يجرى فى الإقليم الشرقي، ويشمل مناطق كبيرة من كسلا .ومن حديث ابن حوقل يبدو أن هذا الملك المسلم الذى كان يتحدث العربية ويحكم شعبا بعضه مسلم وبعضه له دين آخر – نجد أن هذا الملك لم يكن عربيا خالصا ولعله أحد أبناء الزعماء العرب الذين اختلطوا بالسكان المحليين. كذلك بلاحظ أن هذا الملك كان خاضعا لملك علوة. ولعل هذا الوضع كان قد شمل أجزاء أخرى من مملكة علوة النوبية المسيحية فى السودان ، كما انه ربما كان بداية الحكم الفدرالي الذى عرف فيما بعد فى القرن السادس عشر فى السودان ، وذلك عند قيام سلطنة الفونج فى سنار سنة ١٥٠٩م .وكما لا يخفى علينا فإن زيارة ابن حوقل لهذه المناطق كانت فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى (ابن حوقل توفى سنة ٣٥٠ هـ – ٩٦١م).

أما ما كان يقوم به سكان هذه المملكة من نشاط تجارى فهو مثير خاصة قدرتهم على الوصول إلى البحر الأحمر و الإبحار إلى جدة للوصول إلى مكة المكرمة. ومثل هذه الرحلات كانت كما أعتقد تجرى عن طريق باضع (مصوع) لأن مثل هذه الرحلة من كسلا إلى مصوع كانت تتم بالقوافل فوق أراضى بنى عامر . ومازالت هذه الدروب مطروقة بين كسلا ومصوع .كما أن كثيرا ما كانت تستعمل سواء لجلب المواد البترولية عند ما تنقطع خطوط السكك الحديدية السودانية بين بورتسودان وعطبرة والخرطوم بفعل السيول والأمطار ، أو عند ما ثار البجة فى شرق السودان

على الحكم التركى فى أثناء الثورة المهدية .وقد أخلي موظفو الحكومة التركية المصرية وآل الميرغنى فى كسلا وعلى رأسهم السيد محمد عثمان فى سنة ١٨٨٤م وذلك عن طريق مصوع ، ثم من هناك سافر بعضهم إلى مصر والآخر إلى سواكن .أما السيد الميرغنى فقد رحل إلى القاهرة. كذلك فإن اللاجئين الإرتريين فى الفترة الأخيرة كانوا يصلون إلى السودان عن هذه الطريق التى تربط بين مصوع وكسلا عبورا بأراضي قبيلة بنى عامر .وكذلك سلك غردون نفس الطريق فى سنة ١٨٧٧ م حين نزل فى مصوع ، ثم هرر ، ثم انتقل إلى أراضي السودان الشرقي . فهذا الطريق معروف منذ عهود سحيقة. وكان فى تلك الأيام لم يعبد الشارع الذى يصل بين بورتسودان وكسلا إلى الخرطوم . وكانت الحكومة الثنائية قد بذلت قصارى جهدها لنقل المواد البترولية إلى أواسط السودان بسبب الأمطار الغزيرة والسيول والفيضانات التى جرفت خطوط السكك الحديدية بين بورتسودان والخرطوم ، ولذلك عمدت إلى استعمال الطريق البرى بين مصوع وكسلا وذلك بسبب فيضان النيل عام ١٩٤٦ م .

وعلى ما يظهر فإن الرحلة إلى مكة المكرمة من السودان لم تكن شاقة على هؤلاء التجار لان المعاهدات التى كانت بين المسلمين وبين البجة والنوبة قد مكنتهم من اجتياز هذه الأقاليم دون خوف عليهم .وكان أكثر ما يخافه الناس من غير العرب هو أن يقعوا فرائس للاسترقاق . ولكن بسبب المعاهدات مع النوبة والبجة فقد كان الطريق مأمونا حتى للمسافرين من الأحباش المسيحيين إلى بيت المقدس ، فقد كانت هذه المعاهدات تظلهم ولم يصادفوا أي نوع من الاعتداءات عليهم فى أسفارهم التى كانوا يقومون بها

إلى الحج[٢١] لبيت المقدس وكان المسلمون يحترمون هذه المعاهدات ويتقيدون بها .

[٢١] اوغسطس وابلد : السودان بين ١٨٨٣ و ١٨٨٥ بالانجليزية .